في تاريخية الاستشراق : محاولة في فهم مسارات التاريخ وتضامن ارادة المعرفة و القوة في الغرب

أ . قاسمي عبد الناصر

جامعة : الشهيد حمه لخضر – الوادي – الجزائر

ملخص:

تشكل الاستشراق عبر مسيرة طويلة و تاريخ حافل بالتفاعل والاحتكاك وحتى الصراع بين كيانين متجاورين في الجغرافيا متباعدين في الثقافة. والاستشراق من هذا المنطلق يمثل ظاهرة استثنائية فريدة ليس لها مثيل في تاريخ و تقاليد العلاقات و الدراسات الحضارية بين الشعوب ، لأنه قلما انفرد شعب من الشعوب بدراسة شعب آخر . لكنه مع ذلك حقق هذا الحقل نجاحا كبيرا في الهيمنة على موضوعه و ابقاءه تحت السيطرة ، سيطرة هي مستمرة إلى يومنا هذا ، و يعود ذلك الى قدرة هذا الحقل على تطوير اغراضه وأساليبه و تقنياته و مناهجه البحثية .

الكلمات المفتاحية : الاستشراق ، الشرق و الغرب ، أوروبا ، الهيمنة

Résumé :

L'orientalisme est une étude formée à travers un long processus de l'histoire. Un histoire d'interaction et d'acculturation et même de conflit et de guerre entre l'orient et l'occident. L'orientalisme est aussi un phénomène unique qui n'a pas de similaire dans l'histoire qui concerne les relations et les études culturelles entre les peuples, parce qu'il est rare qu'un peuple (L'occident) étudie exclusivement un autre peuple (L'orient) . Ce domaine a réussi à dominer son sujet (L'orient) et à le garder sous contrôle permanent , ce qui prouve la capacité et le pouvoir du discours orientaliste.

Les mots clefs : l'orientalisme , l'orient , l'occident , l'Europe , la domination.

مقدمـــة :

إن احتكاك الشعوب و الحضارات أمر طبيعي فرضته رغبة الأفراد و الجماعات في اطلاع احدهما على ما عند الآخر من تغاير ثقافي و حضاري . و لا أعتقد أننا في حاجة للتدليل – في هذا المقام على الأقل – على أن تاريخ البشرية هو تاريخ حافل بالتواصل والتلاقح و الصراع أيضا . غير أن الملفت للانتباه هنا ، أنه لم يسبق أن حضي شعب باهتمام الشعوب الأخرى الفاعلة في الحضارة الإنسانية و تاريخها ، بالقدر الذي حضي به العرب من اهتمام الباحثين والدارسين . والدليل على ذلك أنه لا تكاد تخلو مكتبة من مكتبات العالم من عدد قليل أو كثير من المخطوطات العربية القديمة ، و لا جامعة من جامعاتها من قسم للغة العربية و آدابها .

و للاطلاع على تاريخ العرب و دينهم و آدابهم و فنونهم ، نشأت حركة واسعة في الغرب الأوروبي الناهض لتوه والطامح للتوسع و السيطرة ، إثر سلسلة الحروب الصليبية (Les Croisades) وعصر النهضة (La Rennaissance) حركة أطلق عليها اسم الاستشراق . الذي كان يعني دراسة الغرب للشرق من جميع النواحي ، فقد عرف عن العقل الغربي أنه عقل نقاد و فوق ذلك عقل رصاد – إن صح هذا التعبير – يملك قدرات عالية على

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

رصد الظواهر و متابعتها و دراستها ، واستخراج دلالاتها الأساسية و تقديم منظومة غنية بالاستنتاجات، أدت بدون شك إلى تعزيز نهضة الغرب وتفوقه على من كان متفوقا عليه . وعليه غدا الاستشراق حقلا من حقول الدراسات الإنسانية و مظهرا من مظاهر الغرب في علاقته بالشرق .

و على مدى هذه المسيرة الطويلة التي تمتد إلى قرون و قرون ، نمت بذرة الاستشراق شيئا فشيئا إلى أن ارتسم هذا الأخير كفرع من فروع الدراسة التي لا تقل أهمية عن العلوم الإنسانية الأخرى – بالنسبة للغرب على الأقل – الذي نجح في فرض رؤيته و استراتيجيته فيما يتعلق بعلاقته بالآخر (الشرق) . لقد أنتج الاستشراق كما هائلا من البحوث و الدراسات غنية في تفاصيلها و متنوعة في مجالاتها : من تعريف بالمستشرقين و فتوحاتهم ، و تأريخ لحركتهم و ترجمة لأعمالهم التي شملت الأدب و السياسة و الفلسفة و الدين و غيرها مما يصعب الإلمام بكل تفاصيلها ، غير أن الملفت في غزارة المكتوب الاستشراقي ، أنه عمل منذ البداية على ممارسة سلطته بالتعالي على موضوعه ، و بتشكيل صورة نمطية كريهة في المخيال الغربي تعين بموجبها الشرقي (الغريب) كجوهر لاعقلاني ذي تخلف بنيوي .

ينبغي ألا ننسى أن تلك الصور النمطية و المقولات الاستشراقية التي كرست دونية الشرق و تفوق الغرب ، هي مستمرة بشكل أكثر حدة اليوم خاصة بعد 11 سبتمبر 2001 . ولا أدل على ذلك من محاولات العرب العبثية تحسين صورتهم في عيون الغرب ، دعوات يتردد ذكرها كثيرا في الخطاب العربي المعاصر .

و تجدر الإشارة إلى أنه ليس في نية هذا المقال الخوض في مسائلات تاريخية جد شائكة ، أو ادعاء القدرة على تحديد لحظة تماس الشرق و الغرب . غير أن ذلك لا يمنعنا من مقاربة البدايات التي ثبت فيها التجاور و الاتصال بين هذين الكيانين ، ما دام الاستشراق هو قبل كل شيء تاريخ هذا الجوار الحافل بالأحداث و الحوادث . و تهدف هذه المقاربة إلى تفحص التشكيل التاريخي لصورة الشرقي في الوعي الغربي و الكشف عن الأسباب و السياقات التي كرست المقولات الثنائية و الضدية عن الغرب العقلاني و الشرق العاطفي . وكيف غدت تلك المقولات عبارة عن حقائق و بداهات تستحضر كلما دعت الحاجة إلى معاينة الآخر أو محاكمته ، ثم كيف اكتسب الخطاب الاستشراقي السلطة و المعرفة التي اعدته احد العلوم الانسانية ذائعة الصيت في الغرب . في هذه المحاولة سأقتفي أثر المحطات التاريخانية الكبرى ، التي تكون قد جمعت أو فرقت بين الشرق و الغرب ، مكتفيا بمعاينة أهم المسالك التي أسهمت في تبلور الاستشراق و ترسيمه كعلم غربي بامتياز . عمل هذا الأخير و لا زال يعمل على فرض خطابه على الآخر (الشرقي) بالهيمنة عليه و ابقاءه دائما تحت السيطرة . لقد بات واضحا أن ولادة المرء ضمن ثقافة معينة تضعه بشكل عام على منصة يطل منها بدرجات متفاوتة من العداوة على الثقافات الغريبة الأخرى. هذا ما جعل المستشرق يفضل ثقافته على كل الثقافات الأخرى ، و ينظر للآخر كغريب باعتباره الشكل المشوه و المنحرف عن المألوف من البشر . قد يكون ذلك امتدادا للتقسيم الأرسطي لسكان العالم إلى إغريق و برابرة أو إلى أحرار بالطبيعة و عبيد بالطبيعة .

و الحاصل أن تشكل صورة الشرق العاطفي في عيون الغرب العقلاني ، و ما رسم من علائق تخيلية كثيرة عن واقع الشرق و أهله ، قد قابله شلل تام في دفاع الشرقي عن واقع حاله ، بل و عن إدراك حاله أصلا . و حتى عندما

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

جاءت ردود الشرقيين – المتأخرة – على مقولات المستشرقين ، كانت على نحو قلق و بصورة انفعالية ، المؤسف أن أغلبها يوحي بتطابق ما تصوره الآخر عنها و ما حدده لها . و سواء كانت تلك الردود بالسخط على افتراءات المستشرقين ، أو بتقدير مجهودها العلمي ، ففي كلتا الحالتين تمتع الاستشراق بسلطة أثرت حتى على منطلقات الرد عليه ، في مختلف اتجاهات الفكر العربي المعاصر .

1) – البدايات و الشرق الأسطوري :

لقد ارتبطت أوروبا و العالم العربي و الإسلامي تحديدا ، بعلاقات تاريخية و ثقافية و سياسية و اقتصادية و علاقات عسكرية أيضا ، ثمة تاريخ مشترك يربط بين هذين العالمين . و في كلتا الحالتين – حالتي التعاون و الصراع – كان التاريخ الذي جمعهما متعدد الوجوه و الأشكال فهو تاريخ أديان تارة ، و أخرى تاريخ فلسفات و ثالثة تاريخ فتوحات و تلاقح حضاري ، و أخيرا تاريخ أطماع و هيمنة و استعمار. و قد برز الاهتمام بالعرب و المسلمين منذ دخولهم مسرح التاريخ بقوة في القرن السابع ميلادي، بعد بزوغ الدعوة الإسلامية في مكة المكرمة و تسجيلها الانتصارات تلو الانتصارات بدءاً من مدينة النبي (ص) ، داخل جزيرة العرب و على أطرافها و توحيدها للعرب المشتتين لأول مرة في التاريخ ، ثم انطلاقتها المعروفة شمالا و شرقا و غربا ، فيما عرف باسم الفتوحات الإسلامية .

و في غياب دلائل تاريخية واضحة و محددة ، عن بدايات الاحتكاك أو التعارف بين الشرق و الغرب. نتوقف عند حقيقة يكاد يكون مسلم بها لدى عديد الباحثين في ميادين التواصل الحضاري بين الشعوب عبر التاريخ ، و هي نجاح حملة الاسكندر المقدوني (322 ق.م) في احتلال سوريا و فلسطين ، ما يعد مؤشرا واضحا على بواكير اهتمام الغرب بالشرق ، إن لم يكن حضاريا وثقافيا فهو عسكريا و اقتصاديا . و ما يدعم هذه الحقيقة أيضا في التاريخ القديم ، وجود كتابات إغريقية قديمة تعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد ، كتلك التي دونها المؤرخ اليوناني الشهير هيرودوت (انظر التعليق : رقم1) ، عن رحلته إلى مصر و سوريا و بلاد الرافدين ، و ذلك « بتقديمه وصفا أثنوغرافيا مهما و ممتعا عن حياة المصريين و عاداتهم و تقاليدهم ، و بعضا من أساطيرهم . و ديودور أيضا الذي رحل إلى مصر في القرن الأول قبل الميلاد فكتب عن أساطيرها ، و لاسيما أسطورة إيزيس و أوزوريس و عن النيل و فيضانه » (الحيدري ،إ ، 1996، ص: 90) . و للتذكير فإن الكتابات التاريخية القديمة قد امتزج فيها الواقع بالخيال و الحقائق بالأساطير (انظر التعليق: رقم 2) ، مما يعني أن الأساطير المنسوبة للعهود القديمة تشكل رافدا مهما من روافد تشكيل صورة الشرقي و مصدرا يغذي المخيال الشعبي في الغرب ، إذا ثبت بالفعل أن مثل هذه الحكايات و الأساطير قد وجدت طريقها مبكرا إلى مقروئية الآخر (الغربي) ، و هو ما يكون قد وقع بالفعل في احتلال الاسكندر المقدوني لسوريا و فلسطين و في مدونات هيرودوت التاريخية ، و ما جاء في أساطير آرام من أن « أوروبا كان اسما لأميرة كنعانية ابنة ملك صور أو صيدون في القرن الثاني الميلادي ، تزوجت من زفس الشرقي الكسول بعدما تقمص مفتونا بسحر جمالها الخلاق ، ثورا فريدا ، فأنجبت منه عدة أولاد أشهرهم مينوس و رادامنتوس اللذان

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

اشتهرا بالعدل فأوكل إليهما محاكمة الأموات ، و مع ذلك بقي اسمها أشهر الأسماء على الإطلاق ، أوروبا » . (بشور ، و ،1989، ص: 432-433)

ليس غرضنا هنا خوض غمار الأساطير و تحليلاتها الأنثروبولوجية و تفكيك دلالاتها المرمزة ، بل القصد من ذلك تتبع الكيفية التي تمت بها معاينة الشرقي ، كونه منحرفا و جانحا عن عقلانية الغربي ، إذ يبدو ذلك واضحا فيما تنسجه الميثولوجيا من عيوب و اتهامات صريحة أو مشفرة للشرقي . و حينما يمعن المرء التفكير في المادة الأسطورية كما تروى تماما ، سيلاحظ الفرق بين أوروبا الأميرة الجميلة وبين زفس ذلك الثور الشرقي الكسول ، كما سيلاحظ استحقاق العدل لأبناء أوروبا مينوس و رادامنتوس و الوحشية للثور زفس . ومن هنا تبدو صلة الوعي الأوروبي وثيقة بين حاضر نظرته للآخر (الشرقي) و بين ماضي تفكره فيه ، من خلال الحكايات و الأساطير ، التي كانت شائعة آنذاك بين ضفتي البحر المتوسط الشرقية بصفة خاصة ، التي كانت مركزا مهما للحضارات القديمة ؛ الفينيقية و الكنعانية و غيرها .

لقد جاء في دراسة مرسيا إلياد (Mercia Eliade) أن « كل ثقافة تتكون في النهاية من سلسلة من التفسيرات و التقويمات المستجدة لأساطيرها المخصوصة حيث لا توحي الأسطورة بالوهم ، بل تعبر عن الحقيقة بلا منازع ، لأنها لا تتحدث إلا عن واقع الحياة » (مرسيا ، إ ،(ب ت) ، ص:88-102) هذه الوشائج بين التاريخي و الأسطوري دفعت بدورها كلود ليفي شتراوس(C.Levi-Strauss) إلى تقليص المسافة بينهما مؤكدا بدوره على « أن التاريخ في مجتمعاتنا الأوروبية نحن قد حل محل الميثولوجيا ، و هو يؤدي نفس الوظيفة ، [...] فالهوة القائمة في أذهاننا بين الميثولوجيا و التاريخ ينبغي ردمها بدراسة التواريخ التي يجري تصورها لا على أنها منفصلة عن الميثولوجيا ، بل هي استمرار لها » (شتراوس ، ك ل، 1968، ص: 35) .

2) – أوروبا الوسطية و الإسلام : صراع بين عالمين .

لا شك أن الحدث الأهم الذي وضع الشرق عموما و العرب بصفة خاصة في مجرى التاريخ ، هو ظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية في بداية القرن السابع ميلادي . و ما كاد العام 732م ينصرم حتى تدفق المسلمون خارج حدودهم حاملين رسالة الإسلام إلى العالم الفسيح مقيمين إمبراطورية عظيمة ، أعظم من إمبراطورية روما في ذروة قوتها على حد تعبير المؤرخ فيليب حتي . ففي أقل من قرن من ظهوره تمكن الإسلام من الانتشار في ثلاث قارات ، إذ لم يحصل في تاريخ حوض البحر الأبيض المتوسط أن شهدت المنطقة توسعا بالسرعة و المدى اللذين ميزا الفتح الإسلامي.

و عليه برز الإسلام آنذاك كقوة دينية ثقافية و عسكرية استطاع في فترة وجيزة أن يغير موازين القوى، و أن يقفز بسرعة من الهامش لاحتلال المركز . فقد كتب المستشرق الإيطالي الشهير فرانشيسكو غابرييلي (Francesco Gabrieli) يقول أنه على الرغم من ولادة « الإسلام في منطقة من أكثر المناطق بدائية و تخلفا ، و لكنه سرعان

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ما تجاوز حدوده وتطور من ظاهرة محلية و عامل داخلي في حياة الأمة العربية ، إلى عقيدة كونية و قوة عالمية » (غابرييلي، ف،1985، ص:85) . و لا تقتصر مظاهر هذه القوة في مداها التوسعي – الذي تم في كل اتجاه – فحسب ، بل ما هو أهم من ذلك هو قدرتها على توحيد بيئات و مستويات ثقافية و اثنية شديدة التنوع و الاختلاف . و من هذا المنطلق برزت الثقافة العربية الإسلامية القروسطية كقوة مهيمنة لعبت دور المنافس و المعارض سياسيا و عقليا و روحيا لمكونات الحضارة الأوروبية في تلك الآونة . و بالتالي فإن تاريخ العلاقات و الروابط – التي جمعت أو فرقت – بين الحضارتين الأساسيتين و المتجاورتين في المجال الجغرافي و الثقافي في البحر المتوسط يصعب فهمها بصورة صحيحة ، إلا في سياق المسيرة التاريخية المعقدة التي تميزت من جهة بصلات و روابط روحية و ثقافية مشتركة ، و من جهة أخرى بفروق و اختلافات أولية مهمة و ذلك تبعا لنقاط الرؤية و زواياها ، إزاء المسائل الدينية و الاجتماعية و الاقتصادية و الثقافية . لقد « شكل نجاح الإسلام و توسعه الباكر تحديا على المستوى اللاهوتي و السياسي و الثقافي ، اثبت أنه عقبة كئود في سبيل الفهم ، كما شكل تهديدا للغرب المسيحي . و كل من الإسلام و المسيحية يمتلك شعورا برسالة مهمة و عالمية كان محتما أن تؤدي إلى المواجهة بدلا من التعاون بينهما » (إسبوزيتو، ج ،2002،ص: 45) .

لقد أصبحت أوروبا الوسيطية في وضع لا تحسد عليه ، كونها محاصرة جغرافيا من كل الجهات : شمالا بأقاليم و صحاري ثلجية ، و غربا بالمحيط الأطلسي – نهاية العالم – قبل اكتشاف أمريكا . أما حدودها الجنوبية و الشرقية تكاد تكون إسلامية بالكامل ، من الأندلس إلى صقلية و آسيا الصغرى و اليونان ، حتى وصف البحر الأبيض المتوسط آنذاك بالبحيرة الإسلامية ، كما كانت أوروبا الشرقية على احتكاك مع أقوام مسلمة كالمغول و التركمان .

أما على المستوى اللاهوتي ، فقد اتسم الإسلام من وجهة نظر المسيحية الغربية بخلفية إشكالية لاهوتية عميقة ، فعلى الرغم من صلته المبدئية الوثيقة بالتقاليد الشرقية (اليهودية و المسحية) ، إلا انه وضع نفسه من ناحية أخرى في خندق مضاد ، متعارض تماما مع تلك التقاليد الدينية المذكورة ، بإلغائه أي إمكان لتجسيد الطبيعة الإلهية ونفيه التام لفكرة الثالوث المسيحية . و بذلك التوجه العقائدي يكون الإسلام قد حطم النظام البنيوي اللاهوتي حول التقديس و التكوين الإلهي للتاريخ و تجسيد الإله ذاته ، الذي كان مهيمنا في التصورات المسيحية القروسطية. وعليه كان ظهور الإسلام نوعا من التحدي الديني– التاريخي ، بالنسبة للديانتين اليهودية و المسيحية. (جورافسكي، أ ،1996، ص : 35) . و أمام هذا المد الإسلامي الخانق للمسيحية لاهوتيا و مرارة الشعور بانحصار الجغرافيا ، تحلت أوروبا – في البداية – بحذر و خوف شديدين ، فأصبحت النظرة للإسلام محكومة بعداوة تماهى فيها الخطر الديني مع الخوف من ذوبان الهوية الحضارية لأوروبا ، بعد فقدهم لمناطق النفوذ و الثروات و التأثير الحضاري في « وقت كان لفظ الفيلسوف يعني فعليا المسلم » (شاخت ،ج ،1998، ص: 38) . و يجسد هذا الحذر والخوف من الإسلام تعبيرا صريحا عن واقع الحال الأوروبي الذي كان يرزح آنذاك تحت وطأة التخلف و الجهل . ففي الوقت الذي كان فيه « الإسلام يفيض ازدهارا و ثراء في المجالات كلها ؛ بينما كان الغرب في الحقب نفسها لا يملك غير ثقافة آباء الكنيسة»

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(سوذرن ، ر ، 2006، ص : 44) .

و الحاصل أن الحضور العربي الإسلامي على أبواب أوروبا و على طول أسوارها ، شكل تهديدا جديا و قلقا انطولوجيا و ثقافيا لأوروبا القروسطية . و هو ما يتجلى بوضوح في نبرات التحذير و الاحتراز من قدرات هؤلاء الفاتحين ، التي يصعب التكهن بمداها و بنواياها ، فقد كتب المؤرخ إدوارد غيبون (E. Gibbon) (انظر التعليق: رقم3) يقول : « فهذا الأمن الظاهر ينبغي ألا ينسينا أن أعداء جددا و أخطارا مجهولة لا نحس بها الآن يمكن أن تتحدانا فجأة . فالعرب و المسلمون الذين امتدت فتوحاتهم بين إسبانيا و الهند ، عاشوا آمادا طويلة في فقر و مسكنة ، حتى جاء محمد فنفخ في هذه الأعضاء المتوحشة روح الإيمان بالحياة و الحماسة للعقيدة » (سوذرن ، ر،2006، ص: 49) .

إن الخوف الأوروبي من الإسلام و الحذر من نواياه ، هي السمة التي طبعت العلاقة بين أوروبا و الإسلام و التي كانت لها أسبابها اللاهوتية – بالطبع – في تلك الفترة ، غير أنه فيما يتعلق بالتصورات العدائية المتبادلة بينهما ، لم يكن الأمر يتعلق بمسائل الخلاف اللاهوتي على الإطلاق . بل يرجعه المؤرخون إلى انتشار الجهل بما عند الآخر و بضعف المعرفة به ، بسبب غياب قنوات التواصل بين العالمين الإسلامي و الأوروبي . خاصة إذا علمنا أن أوروبا و لمدة أربعة قرون تقريبا أي بين ظهور الإسلام حتى نهاية القرن العاشر ميلادي ، لم تكن تعرف بأن السراسانيين (انظر التعليق : رقم4) هم أصحاب عقيدة و أهل توحيد كما في عقائد اليهود والنصارى . مع أن الإسلام جاء امتدادا للديانات السابقة عليه (اليهودية و المسيحية) و معترفا بسماويتها ، في حين بقي السابق جاهلا – أو متجاهلا – الديانة اللاحقة (الإسلام). و السبب في ذلك على ما « يبدو أنه لم تطرح إلا أسئلة قليلة عن هذا الشعب ، فهم في أعين البلاد المسيحية في الغرب عبارة عن مجرد كارثة ، مثلهم كمثل الشعوب البربرية الأخرى ... لقد كان المسيحيون قد سمعوا بالسراسنة (العرب) قبل الإسلام بزمن طويل ، و عندما غير السراسنة دينهم لم يكن أحد يلحظ ذلك في بادئ الأمر » (غابرييلي ، ف ،1989،ص : 30) .

لقد كان الكتاب المقدس ، المصدر الوحيد و الأداة الفكرية الفعالة في أوروبا مطالع العصور الوسطى، و ما كان في وسع المؤلفين و الكتاب اللاتينيين أن يتجاهلوا كلام العهد القديم عن الماضي و الحاضر و المستقبل ، مهما كان هذا الكلام غامضا أو غير معقول . و ليس خافيا أن الكتاب المقدس قد أسهم في صياغة مفهوم الأوروبيين للعالم و للتاريخ . و في كل الأحوال فإن الصورة المسيحية النمطية عن الإسلام كانت نتاج « الأدبيات التي وضعها رجال الكنيسة و علماء الكلام و المؤرخون و الدعاة بالدرجة الأولى لسبب بسيط ، هو أنه في العصر الوسيط إلى عصر النهضة كان رجال الكنيسة و الرهبان و الكهان و موظفو الكنيسة الكبار ، هم الذين يمتلكون مفاتيح المعرفة و يتكفلون بتربية المؤمنين بكتاباتهم و دعواتهم» (وات ، م ،1998، ص : 54) . يذكر أيضا أن أعمال يوحنا الدمشقي قد ساهمت بشكل فعال في رسم بعض ملامح المسلم ، فانتمائه السامي و نشأته في بيئة عربية بيزنطية و إسلامية ، أضفى على أحكامه مزيدا من الإثارة و المصداقية في تنشيط مخيلة مسيحيي أوروبا ، فقد حاول هذا الأخير

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

« التشكيك بكون الإسلام دين إبراهيم الحنيف ، من خلال وصفه المسلمين على نحو لا يخلو من الخبث، بالساراسانيين» (أفاية ، م ن،1998، ص : 54) . مقتفيا فب ذلك أثر الممارسات و المحظورات في الإسلام ، كمعاملة المسلمين للنساء و الختان و محرمات الطعام و منع شرب الخمر ، منتقدا بشدة هذه الممارسات . و الحاصل أن « التصورات المتكونة عن الاسلام كبدعة مسيحية ، مرتدة و منشقة عن محمد كنبي مزيف انتقلت من مسيحيي سوريا إلى البيزنطيين ، و منهم الى الأوروبيين » (ألكسي ، ج ،1996، ص : 71) .

إن عنف الأحكام المنتجة عن الإسلام في المتخيل الأوروبي ، كان الوسيلة الوحيدة لمواجهة إرادة القوة التي تمكنت المسلمين من انتزاع مناطق شاسعة من سيطرة المسيحية . فقد شكل المسلمون و لمدة طويلة من الزمن خطرا ، قبل أن يصبحوا مشكلة بالنسبة للغرب على حد تعبير مكسيم رودنسون (Maxime Rodinson) . أن أغلب الباحثين الغربيين يؤكدون على أن الانتشار الكاسح للمحمدية (انظر التعليق : رقم5) ، شكل أكبر تهديد للوجود المسيحي في البحر المتوسط . لذلك عملت المؤسسة المسيحية جاهدة ، على تجميع الصور القدحية و تكثيفها ، للانتقاص من قيمة الواقعة الإسلامية من جهة ، و لإعادة بناء الوعي المسيحي بذاته من جهة أخرى . و أمام كثافة هذه الصور المنتجة في الغرب عن الإسلام – رسولا و نصوصا و حضارة و إنسانا – لا يسعنا إلا إجمالها في « ثلاث صور نمطية كبرى صاغها الوعي و المخيلة المسيحية الغربية في الزمن الوسيط عن الإسلام و هي : الوثنية و العنف و الشبقية [...] سواء تقدمت هذه الصور في شكل صور متخيلة تشوه الإسلام باعتباره عقيدة، أو صور كاريكاتورية تضخم بعض الجوانب الواقعية و تصوغها في قالب منفر و لا أخلاقي أو صور انتقائية تجعل من بعض المواقف الإسلامية [كالجنس] فرصة للتهويل » (أفاية ، م ن ،1998، ص : 63).

3) – الحملات الصليبية والتبشير: محطات للتقويم و إعادة تشكيل الصور

على امتداد الفترة بين بداية الفتوحات الإسلامية و بداية الحروب الصليبية ، اتسمت العلاقة بين العالمين الإسلامي و المسيحي بطبيعة صراعية و قلقة ، غذتها إرادات الهيمنة و المماحكات الدينية ، في جو طغت عليه الأحكام القدحية و إنتاج الصور النمطية المشوهة التي تنبئ بحصول مواجهات وشيكة بين الطرفين . كانت المبادرة هذه المرة من المسيحية لأنه « خلافا للموقف الإسلامي الهادئ و حتى اللامبالي ،كان موقف المسيحيين الغربيين من الإسلام انفعاليا ، و غير متسامح روحيا لأن الإسلام كان في تصورهم تحديا تطلب ردا و مقاومة و اهتماما دائما به» (جورافسكي ، أ ،1996، ص : 37) . و بالفعل أسفرت التعبئة المسيحية ضد الإسلام عن انطلاق الحملات الصليبية ، عقب خطبة شهيرة ألقاها البابا أوربان الثاني أمام حشد من المؤمنين في المجمع الديني المنعقد في كليرمونت بجنوب فرنسا عام 488 هـ/1095 م ، دعاهم فيها بحماسة لتحرير الأرض المقدسة من الكفار. و بغض النظر عن أهداف تلك الحملات و عن نتائجها و تفاصيلها التاريخية ، فقد شكلت فاتحة عهد جديد في تاريخ العلاقة بين الكيانين المتعاديين « فقد أتاحت الحروب الصليبية الفرصة لاتصال مباشر بين مسيحيي الغرب و المسلمين» (

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

غابرييلي ، ف،1998، ص: 38) . فمع الحملة الصليبية الأولى فقط تمت معاينة الإسلام عن قرب ، تعرفت من خلالها أوروبا على الإسلام كونه دين خارج نطاق الوثنية و أنه دين توحيد كما في المسيحية و اليهودية فقد أحدثت هذه الحملات تحولا مهما في تغيير صورة الآخر (الإسلام) . فإن كانت للحروب الصليبية من إيجابيات يمكن أن تذكر ، فقد سمحت تلك الحروب للمرة الأولى في تاريخ أوروبا من الاطلاع على عقيدة الإسلام و التعامل مع نبيه محمد (ص) بوصفه رجلا صادقا و مخلصا. و أنه لم يدع شيئا أكثر من كونه نبيا مرسلا من الله ، و أنه ليس قائدا مؤلها أو المسيح الدجال ، كما ارتسم في مخيلة الأوروبيين المشبعة بالثقافة الكنسية لمدة طويلة من الزمن.

إن التحول الأبرز في هذه المرحلة من تاريخ العلاقة بين الأنا و الآخر ، يكمن في إعادة النظر في تقييم التراث الغربي و مراجعة تصوراته المتوارثة و المشحونة بخطب الباباوات و ما أشيع حول وثنية الإسلام ، لإعادة تصحيح و تشكيل الصور و الرؤى المستوحاة من الكتاب المقدس و تشويهات الكهنة و رجال الكنيسة ، ليصبح الاسلام امتدادا للتقليد الديني التوحيدي اليهودي المسيحي . لكن الملفت و المؤسف أيضا أن هذه الصورة المعدلة عن الإسلام ، سرعان ما استلبت و أعيد تشويهها من جديد في تشكيل جديد على أنه " هرطقة مسيحية ." إذ نلاحظ كيف نفى الراهب و المؤرخ أوتو الفرايسنجي (Otto Von Freising) تهمة عبادة الأصنام عن المسلمين قائلا « إن المسلمين لا يقدسون الأصنام ، بل يعبدون الإله الواحد و يعرفون العهد القديم و شعيرة الختان ، ثم أنهم لا يذمون المسيح و لا الرسل ، إنهم يضلون في نقطة واحدة ، و مهمة فقط : في إنكارهم للألوهية المسيح ، و لكونه ابن الله و إيمانهم بمحمد باعتباره مرسلا من عند الله الواحد الأحد » (سوذرن ، ر،2006، ص : 79) . و هكذا يبدو أن شيئا من التعقل فيما يتصل برؤية الإسلام و شخصية نبيه ، قد بدأ يطرد التصورات الخيالية في أوساط المثقفين الأوروبيين على الأقل . و لعله من بين أهم الأسباب التي دعت إلى وصف الإسلام بالهرطقة المسيحية هو اكتشاف أوروبا للأعداد الهائلة من – الكفار – سكان العالم الذين يعتنقون الإسلام ، ما اضطر الكتاب الأوربيين إلى اعتبار عقائد الإسلام مسيحية محرفة . لقد استطاع روجر بيكون(Roger (Bacon 1214-1294م ، أن يضع المسيحية للمرة الأولى في موقعها الحقيقي جغرافيا و بشريا ، و هو ما لم يكن ممكن لأحد من قبل – حتى لبيكون نفسه – الذي يقول : « هناك مسيحيون قليلون في العالم اليوم ، أما سائر الأرض المعمورة فيغص بالكفار ، الذين لا يجدون أحدا أن يهديهم إلى طريق الحق» (سوذرن ، ر ،2006، ص : 100) . و يبدو أن مثل هذه الأقوال تخفي آمالا حالمة بذوبان الإسلام يوما ما في بوتقة المسيحية. و هكذا و في جميع الأحوال قاد التناول الأوروبي للإسلام بصورة متفاوتة إلى تنميط الصور و الأفكار عن الساراسانيين و عن الحمدية ومحاكاتها للمسيحية ، و في كل مرة كانت تستدعى تلك الأفكار المشوهة من التواريخ و الحوليات العدائية ، التي كتبها رجال دين مهووسين بالخوف من التوسع الإسلامي لصده عن التغلغل في العمق الأوروبي .

ثم جاء التبشير لتحقيق ما لم تحققه الحروب الصليبية ، التي دامت قرابة قرنين من الزمن (1095-1291م) .كان ذلك تتويجا لجهود كلا من روجر بيكون و ريمون لول (Raymond Lull) و مساعيهما لإحلال الجهود

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التبشيرية محل الحروب العسكرية ، تستند هذه المساعي إلى الرغبة في الفهم العميق للعقيدة الاسلامية و اللغات العربية . كما يأتي هذا المشروع امتدادا لاستراتيجية الغرب المتواصلة للسيطرة على الآخر بشتى الطرق و الوسائل . كانت هذه المرة –كما اشرنا من قبل – عن طريق «البعثات التبشيرية التي بدأها القديس فرانسيس أثناء الحملة الصليبية الخاصة سنة 1220م ، هذه البذرة الصغيرة التي نمت في أثناء مائة سنة حتى أصبحت شجرة ضخمة » (باركر،أ،(ب ت)، ص : 142-143) . ذلك أن هزيمة الصليبيين لم تثني الأوروبيين عن مواصلة العمل على محاربة " هرطقة محمد " ، لا بعنف السلاح هذه المرة بل بفهم مضامين الإسلام و الإلمام بمنطقه لدحض حججه و نقضها ، و لهذا كانت « فكرة التبشير هي الدافع الحقيقي خلف انشغال الكنيسة بترجمة القران و اللغة العربية » (فوك، ي،2001، ص : 16) .

و بالفعل ، فقد رعى و مول بطرس المبجل (Pierre le Venerable) (1092-1157م تقريبا) رئيس دير كلوني (Cluny) ، أول ترجمة للقرآن (انظر التعليق : رقم5) إلى اللاتينية سنة 1143م . كان ذلك – حسب الدكتور محمد الصالح البنداق – على يد راهب انجليزي يدعى روبرت الرتيني (Robert de Retina) و راهب ألماني يدعى هرمان (Hermann) . لقد خرج الأب بطرس بقناعة أنه لا سبيل إلى مكافحة (هرطقة محمد) بعنف السلاح الأعمى ، و إنما بقوة الكلمة و دحضها بروح المنطق الحكيم للمحبة المسيحية . و من هنا كانت المعرفة المتعمقة بمواقف الخصم و بمنطقه اللاهوتي ، ملحة و ضرورية لاختراق المحمدية بسلاح آخر غير السلاح التقليدي ، و هو ما أعتبر مع ذلك تقدما هائلا في تاريخ العلاقة بين الإسلام و المسيحية . لقد كتب بطرس المبجل مخاطبا المسلمين: « إنني أهاجمكم ليس بالسلاح و لا بالعنف مثلما اعتاد أصحابنا أن يفعلوا و لكن بالعقل ، ليس بالكراهية و لكن بالحب » (روتر، ج ،1998، ص : 29) . و بالرغم مما اعترى تلك الترجمة التي قام بها بطرس المبجل للقرآن من تقصير و عدم دقة ، إلا أنها شكلت معلما بارزا في الدراسات الإسلامية بأوروبا الغربية خلال العصور الوسطى .

4) – عصر النهضة و تبلور الاستشراق .

إن أية مراجعة للتراث التاريخي الأوروبي المبكر حول العرب و المسلمين مهما كانت عرضية، لا يمكنها أن تفلت من حقيقة أن الرؤية التي تمت من خلالها معالجات الإسلام و دراسته كانت عدائية ، بسبب أنها كانت بعيون كنسية متعصبة للعقيدة المسيحية . فقد كرست الكتابات الغربية حول الماضي العربي الإسلامي منذ القرون الوسطى ، تقليدا تمتع بنفوذ و تأثير كبيرين في المخيال الشعبي الأوروبي . ينبع هذا التقليد من اختزال رحابة العالم الفسيح إلى شرق وغرب ، و هو تقسيم ينطوي على دلالات استشراقية واضحة المعالم ، تنبع أساسا من افتراض غرب متحضر و شرق بربري مسكون بكل أنواع الخرافات . لقد حلت هذه الأحكام محل الحقيقة الفعلية ، لتغدو شائعة و جاهزة الاستحضار كلما كان الشرقي موضوعا يثار .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لكنه مع بدايات عصر النهضة ، بدأت الرؤية الغربية تتجه نحو مزيد من الدقة و الموضوعية في معاينتها للآخر . كما بدأ السجال يأخذ طابعا جديا و نقديا حول صحة المنقول عن الشرق بين الرحالة أنفسهم ، حيث صار التمييز ممكنا بين من يتمتع بمزايا خلقية وصفات إنسانية ، و بين آخر متعصب للصورة القديمة المعادية للشرق و الشرقيين خصوصا و قد تزايدت رغبة الغربيين في استكشاف الشرق و معاينته عن قرب . فقد كتب العالم الألماني سيتزن يقول: « إن رغبتي في زيارة العالم العربي و إفريقيا قد ازدادت أكثر فأكثر ، و قد وجدت أن الشرقيين بشر مثلنا » (الحيدري ، إ،1996، ص : 51) ، ساخرا من تلك الصورة المشوهة ، محاولا تغيير الذهنية التي هيمنت على الوعي الأوروبي و التي اعتبرت الشرقيين برابرة متوحشين . خاصة و أن رغبة الغربيين المتزايدة بالفوز برحلة أو مغامرة في الشرق لم تعد مستحيلة ، بعد أن اتسع العالم أمام الطموح الأوروبي الذي تطورت معارفه و تنامت قوته ، إلى درجة بات معها الشرق –كله تقريبا – تحت سيطرته إبان القرن التاسع عشر(عصر الاستعمار) .

و في ظل هذه المتغيرات الثقافية و الاقتصادية و السياسية ، أنفتح الشرق – مرغما – أمام مزاج الفنان و الرحالة المغامر و الحاج المؤمن و الباحث عن اكتشاف جديد . ثم بدأت الرحلات الاستكشافية تأخذ طابعا موجها من قبل الأنظمة الرسمية الراعية للبعثات حتى « أصبح الارتباط بين العلم و الدبلوماسية وثيقا ، إذ أن أغلب الموظفين الكبار الذين كانوا يعملون في السفارات و القنصليات الأوروبية خلال القرن التاسع عشر ، كانوا من العلماء والمستشرقين » (الحيدري ، إ،1996، ص : 56) . و لعل حملة نابليون بونابارت (Napoleon Bonaparte) إلى الشرق و مصر تحديدا (1798- 1801) ، خير مثال على هذا الوع الجديد من العلاقات بين الشرق و الغرب ، فقد أحاط بونابرت نفسه بالعلماء و كبار الضباط الذين أوكلت لهم مهمة تحديث مصر. يمثل هذا في نظر الكثيرين من المهتمين بشؤون الاستشراق تجسيدا واضحا لنزعة غربية متأصلة ، تحرص على إبقاء الشرق تحت سيطرة الغرب و ممارسة الهيمنة و الوصاية عليه .

و يعد القرن التاسع عشر و القرن العشرون عصر الازدهار الحقيقي للحركة الاستشراقية (زقزوق ، ح (ب ت). ص : 38) ، فقد ارسى هذا العصر دعائم النزعة الموضوعية في الوعي الأوروبي و ميلا واضحا نحو الدقة العلمية أصبحت معها ميادين التاريخ و الأدب و الاستشراق أنظمة فكرية كثيرة مستقلة عن بعضها البعض . كما شهد هذا العصر ظهور ميادين و تخصصات بحثية جديدة ، كعلوم الإنسان و الآثار و علوم اللغة و الدراسات النصية و غيرها . كما شهد الفكر الغربي في هذه المرحلة أيضا بروز تيارين فكريين يمارس كلا منهما منظوره الخاص للنهضة و التحديث . التيار الأول : تاريخي ، ممثلا في حركات الإحياء و الانبعاث المتعددة (الكاثوليكية و الإغريقية و الوسيطية) . أما التيار الثاني : فهو استشراقي يطمح إلى اكتشاف الأنا (الغربي) من خلال الآخر (الشرقي) ، مفندا الادعاء بأن الحضارة الأوروبية هيلينية المنشأ ، ذاتية التمحور ، مكتفية بذاتها و في غنى عن غيرها من الحضارات الأخرى . و يدفع هذا التيار الأخير بقوة نحو ضرورة إماطة اللثام عن حضارات عظيمة دفينة تحت الأتربة خارج أوروبا ، و قد اشتد ساعد هذا التيار مع ظهور الثورات العلمية في حقول الألسنية و علم الإنسان و ازدهار حركة الترجمة والتنقيب عن

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الاثار و غيرها .

و هكذا لم يعد الشرق العربي الإسلامي ذلك الشرق الغرائبي و الخيالي المفعم بالتصورات الحسية فقط –كما كان يتصور – بل أصبح موضوعا بحثيا غنيا بكنوز معرفية دفينة ، ناهيكم عن ثرواته المادية الكثيرة التي حرمت منها أوروبا . كما شهد عصر النهضة سباقا غربيا محموما للبحث عن الآثار ، حيث الوديان و الأنهار العظيمة الدافئة كالرافدين و النيل و السند، و العمل علي فك الرموز و الكتابات القديمة المسمارية و الهيروغليفية و السنسكريتية القديمة ، تمت خلالها الإغارة على كنوز من الوثائق و المخطوطات و الآثار و حتى سرقتها و تهريبها إلى أوروبا. أن عمليات الحفر و التنقيب عن الاثار في كل من سومر و بابل و أكد و نينوى إضافة إلى مصر و فلسطين ، أثبت للأوروبيين حقيقة أخرى و هي أن اليونان و روما لم تكونا فجر الحضارات الإنسانية . أما الإسلام الذي كان على الدوام مشكلة أوروبا التاريخية منذ العصور الوسطى ، لم يعد حدثا طارئا أو مفاجئا ، بل اعتبر محطة مهمة من محطات الصيرورة التاريخية استطاع أن يؤسس واحدة من أرقى الحضارات البشرية في العصر الوسيط ، شكلت هذه الحضارة على الدوام محور اهتمام الغرب و استشراقه.

و الاستشراق في مدلوله اللغوي : كلمة مشتقة من (الشرق) أي مشرق الشمس ، مما يعني أن مصطلح الاستشراق ليس مستمدا من المدلول اللغوي . و حتى في اللغة الفرنسي(Orientalisme) فهي تتضمن الكلمة (Orienter) و التي تعني وجه أو هدى أو أرشد . أما من الناحية الاصطلاحية فيرتبط الاستشراق بمعاني و دلالات كثيرة تدور كلها في فلك واحد تقريبا ، وهو الاهتمام أو الدراسة أو البحث الذي يقوم به الإنسان الغربي تجاه العالم الشرقي . و بصفة عامة يمكن تعريف الاستشراق بأنه : أسلوب من الفكر قائم على تمييز وجودي (أنطولوجي) و معرفي (إبستيمولوجي) بين الشرق و الغرب . وهو بوصفه علما متخصصا يستخدم دراسات أكاديمية يقوم بها علماء غربيون عن الإسلام و المسلمين ، من شتى الجوانب الدينية و الثقافية و الحضارية و التاريخية بما في ذلك نظم و ثروات و إمكانات هذه الشعوب التي تقطن شرق البحر المتوسط و جنوبه .

و قد ظهرت كلمة مستشرق (Orientalist) في انجلترا حوالي 1779م ، و الكلمة الفرنسية (Orientaliste) في فرنسا عام 1799م ، و أدرجت كلمة الاستشراق (Orientalisme) في قاموس الأكاديمية الفرنسية عام 1838م (غابرييلي، ف،1998، ص : 64) ، غير أن مصطلح الاستشراق أصبح مع مرور الوقت مصطلحا فضفاضا نوعا ما ، بعد دخول أوروبا عصرها الحديث ، اثر الكشوف الجغرافية و الثورة الصناعية ، حيث استولى الأوروبيون على بلدان أخرى وراء البلدان العربية و الإسلامية ، في كل مكان من إفريقيا و آسيا و اهتموا بحضارات و لغات أخرى شملت الهند و الصين و اندونيسيا و غيرها . مما دعا إلى مصطلح أضيق وهو الاستعراب (Arabisation) ، و يطلق على الدارس في نطاقه اسم مستعرب (Arabisant) ، أي على كل من يختص بدراسة العرب و حضاراتهم و آدابهم و فنونهم و غيرها . لقد تأسس أول كرسي للعربية عام 1539م ، بالمدرسة الفرنسية (Collège de France) التي كانت قد تأسست حديثا و شغل هذا الكرسي غيوم بوستيل

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

.(Guillaume Postel) (1510-1581)

و يستنتج مما سبق أن الاستشراق كتخصص بحثي قائم بذاته ،لم يكن وليد لحظة تاريخية محددة ، بل هو امتداد لمسيرة طويلة تعود إلى بدايات الاحتكاك بين أوروبا والعالم العربي والإسلامي . و هو بذلك لا ينفصل عما سبقه من رؤى و مشاهدات الرحالة و فرسان القرون الوسطى ، التي ارتسمت في مخيلة الغربيين على نحو يصعب معه إزالتها بسهولة . كما أن الاستشراق باعتباره فرعا من فروع البحث عما يوجد في الشرق ، قد ترعرع و اشتد عوده في إطار الأقاويل و المماحكات الإيديولوجية التي جابهت بها أوروبا المسيحية " فوبيا الإسلام " (أنظر التعليق : رقم6) و دفاعها المستميت آنذاك عن هويتها المهددة بالذوبان ، في عالم كان الدين و لا يزال يشكل مرجعه الدلالي الأول .

على أية حال ، فإن الاستشراق لم يتبلور بالمعنى التقليدي لهذا المصطلح ، إلا بعدما نفض الغرب عن نفسه غبار القرون الوسطى ، مسجلا بذلك تفوقا نوعيا على من كان متفوقا عليه ليغير استراتيجيته الدفاعية نحو الرغبة في احتواء الآخر . فاستعادة الغرب ثقته بهويته بالتزامن مع خط نهضته ، أدى إلى نشأة السيادة الأوروبية لا سياسيا و استراتيجيا فحسب بل قيميا وتصوريا أيضا ، في حين لم يطرأ الانقلاب ذاته على مستوى علاقته بالآخر . ورغم أن تلك العلاقة بين الأنا و الآخر قد تهذبت عبر مناهج خففت من حدة لهجتها تجاه دونية الشعوب الشرقية ، إلا أنها لم تختف أبدا من قاموس استشراقه « إن ما حصل التعارف على تسميته بالاستشراق لا يجوز التوقف في تاريخه عند القرن التاسع عشر ، لحظة مأسسته مع انعقاد المؤتمر الأول للمستشرقين سنة 1873 م [...] . فالتزامن بين دخوله طور العمل المؤسسي و بين عصر الإمبريالية ، لا يلغي أن جذوره و مقدماته قائمة منذ بدايات التعارف و الاتصال بين الشرق و الغرب » (صاغية،ح،1995، ص : 116) . فالعمل في مضمار الاستشراق قد سبق تلك التسمية بكثير . و تجدر الإشارة هنا الى ضرورة تقدير جهد المستشرقين ، الذين قضوا سنوات طويلة في البحث و التنقيب في الوثائق و الآثار و المخطوطات ، التي كان يمكن أن تبقى مهملة ، لو لم يتطوع هؤلاء لإخراجها إلى النور . كالجهد الذي قام به « كارل بروكلمان بعدما قضى نصف قرن و هو أكثر من نصف عمره ليؤرخ للأدب العربي ، من غير أن يكون الوحيد الذي بذل جهدا كهذا » (صاغية ، ح،1995، ص : 10) . و هذا يعني أن الموقف من الشرق و من قضاياه الملتبسة ، يختلف باختلاف رواده و أهدافهم ، مما جعل الاستسراق من أكثر الميادين و الحقول البحثية ارتباطا ، بمتغيرات الواقع السياسي و الاجتماعي المتسارع في الغرب ، و بتفاعلات الجدل و الحوار الدائر في أوساط المستشرقين ، جدل لم ينقطع إلى غاية « المؤتمر الدولي التاسع والعشرون للمستشرقين الذي عقد بباريس ، صيف 1973.م بتسمية جديدة له ، هي المؤتمر الدولي للعلوم الإنسانية في آسيا و أفريقيا الشمالية ، لأن كلمة استشراق تضمر شيء من الاهانة بالنسبة للمستشرقين لأنها تظهرهم بمثابة مواد للدراسة أكثر مما هم فاعلون أو مساهمون فيها » (لويس،ب،2008، ص : 193- 164) . مما نجم عنه تفرع الاستشراق و خضوعه لتقسيمات العمل التي تخضع لها العلوم الإنسانية المتشعبة .

و هكذا أدى الاحتكاك المتزايد بن الشرق و الغرب ، و محاولات الغرب المتواصلة اختراق الشرق و اكتناهه و

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الهيمنة عليه ، إلى تبلور حقل معرفي هو غاية في التميز و الخصوصية موضوعه الشرق عامة – العربي و الإسلامي خاصة – أنتج هذا الحقل و لا يزال نصوصا تسعى كل عناصرها إلى تشكيل رؤية أو صورة نمطية عن الآخر و حساسيته و ايديولوجيته . هذه الدراسات الغربية حول الإسلام و العرب ، هي ما يسمى الاستشراق ، فالاستشراق هو بالذات هذه المعرفة و قد تراكمت و ترسخت في تقليد انضمت في نسق له مقدماته و نتائجه و يعمل بتقنيات و مناهج جد متخصصة .

5)- أزمة الاستشراق و انبثاق الاستشراق الجديد :

من الواضح أن حركة الاستشراق هي حركة في التاريخ نتجت عن العلاقة بين الشرق و الغرب و هي حركة شديدة التأثر بما يحصل من تطورات وتفاعلات الواقع بكل اصنافه الثقافي و الديني و السياسي و غيرها . فالخطاب الاستشراقي تبعا لذلك تشتد نبرته تارة و تخف تارة اخرى تتصاعد حدة المقولات حينا و تخف حينا آخرا تزداد الصور النمطية ازاء الشرقي قبحا ثم تعود فتتلطف بحسب الظروف و المناخ الفكري أو الثقافي أو السياسي السائد آنذاك .

فبعد هجمات 11 سبتمبر (أيلول) 2001 على برجي التجارة العالمي و على وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاغون) و التي اتهم بتنفيذها اسلاميون متشددون ، عادت المقولات الاستشراقية بقوة و بأكثر حدة . في خضم هذه الأجواء السياسية و الأمنية المتوترة تتالت و نمت الكتابات عن الإسلام في الغرب نموا ملفتا كما تزايدت الأطروحات السلبية عن العرب و المسلمين ، أطروحات غاية في العدائية و الاستعلائية تنهل بكل تأكيد من مخزون الاستشراق التقليدي . قد تكون الأجواء المشحونة في تلك الفترة هي المسؤولة عن عودة خطاب الكراهية و التمييز بين الأنا و الآخر ، لا ينبغي أن ننسى أيضا أن أمريكا قد ضربت في صميم كبريائها وفي زهوها الامبراطوري .

و الحقيقة ان الاستشراق بمفهومه التقليدي اصبح مأزوما (في أزمة) (عبد الملك، أ،2005، ص : 415-444) ، يشهد تراجعا ملحوظا نظرا للتفاعلات الحاصلة في الغرب الأوروبي و الأمريكي تحديدا ، بفعل المعطيات السياسية و المستجدات على صعيد العلوم الانسانية والاجتماعية. حيث أخذ البعض يطرح مفاهيم جديدة للاستشراق بل تخلى أكثر المستشرقين عن هذه التسمية ، مفضلين ألقاب أخرى من قبيل مستعرب أو مختص بالإسلاميات أو الدراسات الشرق أوسطية أو غير ذلك ؛ لكون مصطلح استشراق بات متخما ببعد ايديولوجي غير مرغوب فيه . و أصبح – بفعل عوامل عديدة– يمثل المرادف الذهني للصورة البغيضة عن الاحتلال و العدوانية و غير ذلك . ويسهل على المتتبع لهذا المجال ملاحظة ثلاثة علامات جديدة طفت على السطح :

- استخدام السياسيين و الخبراء الاستراتيجيين لنتائج الاستشراق و مقارباته .
- شيوع الأطروحات الاستشراقية المتطرفة في وسائل الاعلام .
- تبني الادارة الأمريكية و بعض النخب الأوروبية للأطروحات الاستشراقية المتطرفة .

نكتفي في هذه العجالة بتوصيف أوليفييه مووس ـــ استاذ التاريخ المعاصر في جامعة فريبورغ بسويسرا و الأكاديمي في

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية بباريس ـــ بخصوص الاستشراق الجديد معتبرا اياه مذهب ثقافوي جديد يقوم على تجديد و أعادة تأهيل الأطروحات الاستشراقية الكلاسيكية ، و متطلبات الدفاع عن قيم الحداثة و الديمقراطية (الوهيبي ، ع ،1434هـ، ص : 84) .

و في هذه الأثناء ، قفز إلى الواجهة تيار واسع من المستشرقين الجدد و المتفقهين في السياسة ، التي تبدو منسجمة تماما مع اليمين المتطرف في امريكا خاصة فيما يتعلق بمواقفهم المتشددة من الاسلام و المسلمين، و على رأسهم برنارد لويس و أرنست غلنر و مارتن كريمر و دانييل بايبس و غيرهم . فقد اعتنق هؤلاء المنظرين الجدد اكثر المواقف تطرفا ضد الاسلام و العرب و المسلمين . و الجدير بالذكر أن اهمية الأعمال التي قام بها هؤلاء لا ترجع لابتكاراتها العلمية ، بل تكمن في قدرتها على اعادة انتاج المقولات الاستشراقية. لقد قاموا باحياء «بعض التصورات الاستشراقية العتيقة للغاية ، و التي ظن كثيرون أنها ماتت موتا أبديا » (لوكمان، ز ،2008، ص : 393) . ينبغي ان يفيد هذا الاستشهاد الأخير اعترافا بأمرين اساسيين الأول ؛ هو قوة الاستشراق و مقدرته على تغيير اساليبه و استراتيجياته كلما اقتضت الضرورة تغييرا . و الأمر الثاني هو ضعف الشرق و قلة حيلته في مواجهة الغرب وهيمنته .

الخاتمة :

نخلص في نهاية هذا المقال إلى أن الاستشراق امتياز بحثي ليس له مثيل في تقاليد العلوم و الدراسات الإنسانية و الاجتماعية الأخرى ، حيث يقوم هذا الحقل بانفراد الغرب بدراسة الشرق حصريا ، شملت هذه الدراسة كل ما يتعلق بالشرق و لم تترك مجالا من مجالاته الا و تعمقت في بحثه و دراسته . و الاستشراق بصنفيه القديم و الحديث يظل منتجا إنسانيا محكوما – بالطبع – بظروف المواجهة بين منتجها و هو الغرب و موضوعها و هو الشرق ، لا تنفك أواصرها عن أهواء اصحابها و افكارهم المسبقة و بمصالحهم الدنيوية في عالم تحكمه المصالح لا القيم و المبادئ (الوهيبي ، ع ،1434هـ، ص :173) .

اما اذا حاولنا وضع الاستشراق موضع نقد و تقييم ، انطلاقا من استقراء المواقف ازاء الخطاب الاستشراقي فأننا لا نجد موقفا واحدا منسجما في هذا الخصوص فقد ، تباينت الآراء و ردود الأفعال تباينا كبيرا لا يتسع المجال إلى ذكرها . لكن أقل ما يمكن قوله في هذا الخصوص ان كثيرا من الأحكام الاستشراقية و الصور النمطية التي اشاعها عن الشرق و اهله هي بعيدة عن الدقة و الموضوعية ، كما أنها لم تكن أصلا وليدة دراسات أو بحوث علمية بل كانت نتيجة اجترار احكام موروثة عن التقاليد الاستشراقية ، ما يدفع إلى الاعتقاد بأن وراء هذه الخلاصات الاستشراقية دوافع ايديولوجية الغرض منها الهيمنة على الشرق و ابقاءه تحت السيطرة لكبح جماحه من جهة ، و لاستنزاف طاقاته ثرواته التي حرمت منها أوروبا من جهة أخرى .

و الأهم من كل ذلك في نظري ، أن الشرق العربي و الإسلامي – بصفة خاصة – لم يتفاعل مع حقل الاستشراق بصفة ايجابية سواء فيما تعلق بالرد على اتهامات هذا الأخير و تشويهاته للشرق عموما ، أو في امكانية الاستفادة منه

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

و من مناهجه العلمية المتطورة في رسم استراتيجية ناجحة لتحقيق النهضة العربية التي طال انتظارها . في حين ان الاستشراق قد نجح على ما يبدو في ابقاء الشرق مشدودا إلى تخلفه .

ان وضع اليد على مكمن الداء يبدأ أولا بوعي الذات بعجز ذاتها و ادراك ضعفها ، و بأن ضعفها طارئ وليس بنيويا كما اراد الاستشراق ان يثبته دائما بهدف ابقاء موضوعه على الهامش ، و أن علاقة المركز بالأطراف علاقة جدلية و ليست علاقة ابدية . لكن مغادرة الهامش ليست ممكنة إلا باعتماد استراتيجية جديدة لا تقوم على استجداء انسانوية الغرب ، بل بالتعويل على امكاناتها الذاتية و قدراتها الحقيقية .

تعليـقات :

1- هيرودوت (Herodotus) اشهر مؤرخ في التاريخ القديم (484-425 ق.م) ، تعود شهرته إلى أنه أول من تلمس الفرق بين القصص و التاريخ و لهذا لقب بأبي التاريخ .

2- من المعروف أن لفظ أسطورة العربي إنما هو تعريب للفظ (Istoria) اليوناني، و تتناول الأساطير عادة روايات لا مؤلف محدد لها تنتشر في المجتمعات المعروفة بتقاليدها العرفية و الشفوية .

3- إدوارد غيبون (Edward Gibbon) 1671-1713 مؤرخ انجليزي ولد وسط حشد من الفلاسفة التأمليين (أمثال روسو، فولتير...) من أسرة غنية ،كان أبوه عضوا في البرلمان الإنجليزي، درس في جامعة أكسفورد و لوزان بسويسرا، سافر إلى أكثر من بلد وفاز بمقعد في مجلس العموم البريطاني. يعد كتابه "اضمحلال الإمبراطورية الرومانية و سقوطها" (Decline and fall of the roman empire) من أشهر ما كتب ، حيث ترجم إلى معظم اللغات الأوروبية.

4- الساراسانيين أو السراسنة Les sarasaines المشتقة من الكلمة اللاتينية Saracenus المنقولة عن اليونانية Sarakenos التي اشتقت من الكلمة العربية (شرقيون) . وهي احدى التسميات التي كانت تطلق على العرب و على كل الذين يدينون بالإسلام في العصور الوسطى الأوروبية بالإضافة إلى تسميات أخرى مثل المحمديين Mohamétans و غيرها . وقد ظهرت كلمة مسلم أول مرة عام 1551 و كلمة إسلام في عام 1697. نقلا عن:https://fr.wikipedia.org/wiki/Sarrasins

5- المحمدية (Mahométisme) و هي مشتقة من الكلمة (Mahomét) نسبة لنبي الإسلام محمد (ص) . تستعمل هذه الكلمة في أوروبا و الولايات المتحدة الأمريكية بمعنى مسلم أو اسلامي . و قد ظلت هذه الكلمة مستخدمة في الكتابات الغربية إلى غاية 1965 تقريبا .

6- و المدهش فقد ظلت الترجمة المذكورة ضمن محفوظات الدير ولم تصدر إلا في سنة 1543م، أي بعد مئات من السنين على وضعها. » - محمد الصالح البنداق، المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى 1980، ص:95 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

7- فوبيا الإسلام أو الإسلاموفوبيا (Islamophobia) وهو مصطلح مستحدث دخل إلى الاستخدام في اللغة الإنجليزية عام 1997. يتكون المصطلح من كلمتين: إسلام وفوبيا وهي لاحقة يقصد بها الخوف أو الرهاب المرضي أو غير العقلاني من شيء يتجاوز خطره الفعلي المفترض. و يعرف قاموس أكسفورد الانجليزي الاسلاموفوبيا بـ «الخوف و الكراهية الموجهة ضد الإسلام كقوة سياسية تحديدا ، و التحامل والتمييز ضد المسلمين ».

المراجع :

1- أفاية محمد نور الدين (1998) ، الإسلام في متخيل الغرب ، مقال في مجلة فكر و نقد ، السنة الأولى ، العدد يناير ، الرباط ، ص: 54.

2- الحيدري إبراهيم . 1996. صورة الشرق في عيون الغرب، دار الساقي، بيروت .

3- الوهيبي عبد الله بن عبد الرحمن (1434هـ). حول الاستشراق الجديد- مقدمات أولية ، الطبعة الأولى ، مركز البحوث والدراسات - البيان، الرياض .

4- ألكسي جورافيسكي (نوفمبر1996) الإسلام والمسيحية ، ترجمة محمد الجراد ، سلسلة عالم المعرفة، عدد215 ، الكويت .

5- إسبوزيتو جون (2002) ، التهديد الإسلامي خرافة أم حقيقة ؟ ، ترجمة عبده قاسم ، الطبعة الثانية، دار الشروق ، القاهرة .

6- باركر أرنست (ب ت) ، الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، طبعة ثانية ، دار النهضة العربية ، بيروت .

7- بشور وديع (1989) ، في الميثولوجيا السورية: أساطير آرام ، طبعة ثانية منقحة و معدلة ، دار الفكر، بيروت .

8- روتر جيرونوت (يناير1998) ، الإسلام والغرب والحوار المفقود ، في مجلة فكر ونقد ، ترجمة: ثابت عيد ، السنة الأولى ، الرباط .

9- زقزوق محمود حمدي (ب ت) ، الاستشراق و الخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، في كتاب الأمة سلسلة فصلية تصدر عن دولة قطر ، الطبعة الأولى ، 1404هـ ، قطر .

10- سوذرن رتشارد (2006) ، صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى ، ترجمة رضوان السيد ، الطبعة الثانية ، دار المدار الإسلامي ، طرابلس .

11- شاخت جوزيف (مايو1998) ، الصورة الغربية والدراسات العربية الإسلامية ، في كتاب تراث الإسلام (الجزء 1) ، تصنيف جوزيف شاخت و كليفورد بوزوروث، ترجمة محمد زهير السمهوري وحسن مؤنس و إحسان صدقي العمد، مراجعة: فؤاد زكريا ، سلسلة عالم المعرفة ، عدد 233 ، الكويت .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

12- شتراوس كلود ليفي (1968) ، الأسطورة و المعنى ، ترجمة صبحي حديدي ، الطبعة الثانية منشورات عيون ، الدار البيضاء ، المغرب .

13- صاغية حازم (1995) ، الاستشراق نظرة موضوعية ، في مجلة العربي ، عدد: 435 ، تصدر عن وزارة الثقافة الكويتية ، ص: 116.

14- عبد الملك أنور (2005) ، الجدلية الاجتماعية، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة .

15- غابرييلي فرانشيسكو (مايو1998) ، الإسلام في عالم البحر المتوسط، في كتاب تراث الإسلام (الجزء الأول) ، ، تصنيف جوزيف شاخت و كليفورد بوزوروث ، ترجمة محمد زهير السمهوري وحسن مؤنس و إحسان صدقي العمد ، مراجعة: فؤاد زكريا ، سلسلة عالم المعرفة ، عدد 233 .

16- فوك يوهان (2001) ، تاريخ حركة الاستشراق ، ترجمة عمر لطفي العالم، الطبعة الثانية ، دار المدار الإسلامي ، ليبيا .

17- لوكمان زكاري (2008) ، تاريخ الاستشراق وسياساته- الصراع على تفسير الشرق الأوسط، ترجمة: شريف يونس ، الطبعة الثانية ، دار الشروق ، القاهرة .

18- لويس برنارد (1994)، مسألة الاستشراق ، في كتاب الاستشراق بين دعاته ومعارضيه ، ترجمة و اعداد: هاشم صالح ، دار الساقي، بيروت .

19- مرسيا إلياد (ب ت) ، الحنين إلى الأصول، ترجمة حسن قبيسي ، دار قابس، بيروت .

20- وات مونتقومري (1998) ، نقلا عن محمد نور الدين أفاية ، الإسلام في متخيل الغرب، مقال في فكر و نقد ، السنة الأولى ، العدد يناير ، الرباط .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com